مجلة الهلال

مارس 1996

عرض نقدى لكتاب هيكل: القنوات السرية

بقلم : د. رءوف عباس

عكف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل على كتابة قصة الصراع الذى دارت رحاه على ساحات السياسة والحرب فى الشرق الأوسط فى النصف الثانى من هذا القرن ، وقدم للمكتبة العالمية على مدى ربع القرن الأخير عددا من الكتب المهمة التى استمدت أهميتها من قرب الكاتب من صناع الأحداث، وذلك الكم الهائل من المعلومات الذى لم يتوافر لغيره من الكتاب وخاصة المعلومات المحلية، أى الوثائق الخاصة بثورة يوليو عامة وعبد الناصر خاصة، وهى وثائق مبعثرة بين أكثر من جهة من المؤسسات السيادية، تحرص كل منها على إبقائها بعيدا عن متناول الباحثين، ولا تكترث بالقانون الخاص بالوثائق التاريخية الذى يلزم تلك الجهات بإيداع ما لديها من وثائق ذات قيمة تاريخية بدار الوثائق التاريخية القومية، وقد بذلت دار الوثائق التاريخية جهودا مضنية لإقناع تلك الجهات : وعلى رأسها رئاسة الجمهورية، بإيداع ما لديها من وثائق بالدار دون جدوى. من هنا تحتل كتابات هيكل أهمية خاصة كمصدر للمعلومات التى يعجز الباحث فى التاريخ عن الوصول إليها.

ورغم أهمية ما كتبه هيكل إلا أن الباحثين فى التاريخ يتعاملون معه بحذر، فالكاتب كان طرفا فى الأحداث التى كتب عنها، وكانت له علاقات متفاوتة فى درجة القوة مع صناع تلك الأحداث، ومن ثم انعكست هذه العلاقات على رؤيته للأحداث وعلى تحليله لها، يلقى أضواء باهرة على بعضها ، ويترك البعض الآخر محاطا بالظلال، ولا بأس فى ذلك على أى حال، فالرجل لم يدع يوما الاشتغال بالتاريخ ويؤكد دائما انه يقدم شهادته عن الأحداث التى شارك فى بعضها وأقترب من بعضها الأخر.

وكتاب "القنوات السرية، قصة مفاوضات السلام العربية – الإسرائيلية" آخر هذا السلسة من الكتب التى قدمها هيكل للمكتبة العالمية، وقد ظهرت الطبعة الانجليزية بلندن منذ أسابيع.

وعادة تظهر معها طبعات أخرى بمختلف اللغات الأوربية وغير الأوربية من بينها الطبعة العربية التى توشك على الصدور من دار الشروق فيما نعلم.

والطبعة الانجليزية من الكتاب تقع فى 572 صفحة، ويضم الكتاب عشرين فصلا، كتبها هيكل بأسلوبه المتميز الذى يجذب القارئ ويثير فضوله. وقد حرص هيكل أن يشير فى مقدمة الكتاب إلى عبارة وردت فى حديث دار بينه وبين عالم الطبيعة الشهير البرت اينشتاين فى بداية الخمسينات أشار فيها الأخير إلى أن الصراع بين العرب وا ٍسرائيل صراع بين حقين، وأن الأمر يحتاج إلى تحقيق نوع من التوافق بين الحق اليهودى والحق الفلسطينى، وبذلك حدد الكاتب التوجه العام لمن شاركوا فى فتح القنوات السرية أو – بعبارة أدق– سعوا لفتحها ، وأغفل الكاتب منذ البداية عاملا مهما كان الحاضر الغائب فى الكتاب، وهو حرص الصهيونية العالمية وا ٍسرائيل على تحييد مصر، وا ٍخراجها من دائرة الاهتمام بالقضية الفلسطينية بشتى السبل والسعى لإبرام سلام منفرد معها، ليقينهم أن غياب الدور المصرى يجعل العرب عاجزين عن مواجهة الكيان الصهيونى، مستسلمين له. لذلك أدمن الصهاينة طرق أبواب مصر منذ أيام الملك فاروق عشية حرب فلسطين طالبين فتح حوار ربما يمهد السبيل لاعتراف مصر بإسرائيل، وكان ذلك عشية قيام إسرائيل وتوقيع اتفاقية رودس عام 1949 ، وانتعشت أمال الصهيونية عندما نجح الضباط الأحرار فى الاستيلاء على السلطة فى 23 يوليو 1952، فحاولوا مغازلة النظام الجديد مطلقين عددا من بالونات الاختبار مشجعين جهود الواسطة.

ضمادة لجرح مزمن!

وحدد هيكل الغرض من الكتاب وهو تقديم قصة الجهود التى بذلها ملوك ورؤساء وسياسيين وعلماء للوساطة بين مصر وا ٍسرائيل، مدفوعين بحبهم للسلام أو بطموحهم الشخصى، كما أنه يريد أن يبين للقراء أن اتفاق السلام الذى وقعة الفلسطينيون عام 1993 كان مجرد ضمادة لجرح مزمن وليس علاجا شافيا وان المسافة لازالت بعيدة بين أطرف الصراع والسلام.

ولما كان الكتاب يخاطب الرأى العام العالمى فقد خصص الكاتب الفصول الخمس الأولى لإلقاء الضوء على القضية الفلسطينية، واسماع الصهيونية فى فلسطين، وموقف الأطراف الدولية التى ساعدت على إقامة الوطن القومى الصهيونى على أرض فلسطين، ورد الفعل الفلسطينى والعربى حتى انتهى الأمر بما حدث عام 1948، وقيام دولة إسرائيل وما ترتب عليه من نتائج سلبية بالنسبة للشعب الفلسطينى وللأطراف العربية المعنية، ورفض العرب الاعتراف بإسرائيل أو إجراء أى حوار معها واعتبار ذلك نوع من المحرمات.

يلى هذه الفصول الخمسة عرض لجهود الوساطة ومحاولات فتح قنوات الاتصال بين العرب وا ٍسرائيل جاء على هامشه (أحيانا) تناول للصراع العربى الإسرائيلى (العدوان الثلاثى– حرب يوليو 1967 – حرب أكتوبر 1973) بشئ من التفصيل طغى على موضوع "القنوات السرية" وحوله إلى الهامش فى كثير من الأحيان، بل جعل هناك خلطا بينها وبين التحركات الدبلوماسية الأمريكية المتصلة بالشرق

الأوسط عامة، والصراع العربى الإسرائيلى خاصة، واحتل الدور الفلسطينى منذ قيام حركة فتح حتى إبرام أتفاق "غزة – أريحا" أولا نصف الكتاب، وأن سرد المؤلف من خلاله محاولات الاتصال بين الطرف الفلسطينى والطرف الإسرائيلى التى توجت بمباحثات أوسلو السرية.

وهكذا تحتل قصة الصراع العربى– الإسرائيلى أكثر من نصف الكتاب، وجاءت "القنوات السرية" على هامشه فأصبحت متابعتها أمرا صعبا ومحيرا للقارئ، وخاصة أن هيكل روى القصة من خلال التسلسل الزمنى (ربما لأن الكتاب يخاطب الرأى العام العالمى الذى لا تتوفر لديه معرفة بتفاصيل الصراع)، فاختلط السرى بالعلنى، والثنائى بالدولى، وتشابكت الخيوط وتعقدت وكادت تفلت "القنوات السرية" من بين يدى القارئ.

السادات والسلام

وكان من الطبيعى أن تشهد فترة عبد الناصر نشاطا ملحوظا من جانب إسرائيل لفتح قنوات اتصال مع مصر، وحسم أنور السادات الأمر وبادر بفتح قناة اتصال عريضة بتشجيع من شاوشيسكو رئيس رومانيا والحسن الثانى ملك المغرب، وبقية القصة أصبحت معروفة من خلال كتابات هيكل السابقة سواء كتابه عن السادات (خريف الغضب) أو كتابة عن (أكتوبر 1973).

وكذلك من خلال الأدبيات التى صدرت فى السنوات الأخيرة بالعديد من اللغات حول السلام المنفرد الذى أبرمته مصر مع إسرائيل، فضلا عن تغطية المحللين السياسيين لعملية صنع السلام فى الشرق الأوسط من خلال الكتابات الغزيرة التى نشرت فى الدوريات بمستوياتها المختلفة أكاديمية وا ٍعلامية على حد سواء، لذلك لم يضف هيكل جديدا عند معالجته لهذا الجانب من الاتصالات التى كان القليل منها سريا، والأغلب علنيا حظى بتغطية إعلامية غير مسبوقة.

ولذلك لا يتبقى من "القنوات السرية" الجديرة بالرصد إلا المحاولات التى تمت منذ قيام ثورة يوليو حتى رحيل جمال عبد الناصر وهذه أيضا غطاها هيكل فى كتبه الثلاثة عن "حرب الثلاثين عاما" وأشار لبعضها فى كتابه عن (أكتوبر 1973)، كما تناولتها أقلام العديد من الكتاب والباحثين الذين كتبوا عن صراع الشرق الأوسط، أو أزمة الشرق الأوسط، أو الصراع العربى– الإسرائيلى أو ترجموا لعبد الناصر، وكذلك الكتب التى صدرت عن أزمة السويس وحرب يونيو 1967، ورغم ذلك جاء تجميع هذه "القنوات السرية" فى كتاب هيكل الجديد عملا تسجيليا مفيدا فى إطار رصد جهود البحث عن السلام فى الشرق الأوسط.

خطورة التورط مع الغرب

وتبدأ قصة ثورة يوليو مع جهود الوساطة بسعى الولايات المتحدة الأمريكية إلى إقامة "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط" ضمن جهودها لإحاطة الإتحاد السوفيتى بأحزمة من الأحلاف الموالية للغرب، وكان

التصور الأمريكى أن تكون مصر مركز المنظمة الدفاعية الجديدة بما لها من وزن إستراتيجيى وسياسى فى المنطقة، وكان مشروع الحلف فى مقدمة المسائل التى طرحت على صناع النظام الجديد، ورغم صغر سن أعضاء مجلس قيادة الثورة، وخدمتهم السياسية المتواضعة، إلا أنهم كانوا يعون تماما خطورة التورط فى حلف مع الغرب بحكم روابط التبعية حول مصر، لقد كانوا يسعون إلى تحقيق الاستقلال الوطنى التام، ويريدون تخليص البلاد من السيطرة الأجنبية، ولذلك عقدوا العزم على مقاومة كل أشكال الهيمنة الأجنبية، وفى مقدمتها الأحلاف.

ولما كانوا فى حاجة إلى مساندة الولايات المتحدة فى بداية الثورة لضمان تجنيد القوات البريطانية فى مصر (وخاصة فى الأيام الأولى للثورة)، وا لى مساعدة أمريكا لمصر فى مجال تحديث الجيش، والتنمية الاقتصادية، فقد أتبع مجلس قيادة الثورة خط المراوغة بالنسبة لموضوع "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط"، فالثورة لا تعلن الرفض الصريح ولا تلمح بالاستعداد للموافقة.

ولكنها تطرح أمام الأمريكان الصعوبات التى تحول دون التوصل إلى قرار، وفى طليعتها الوجود البريطانى فى مصر (قاعدة قناة السويس) والمسألة الفلسطينية وفهم الأمريكان أن إزالة هذه العوائق من الطريق سوف يؤدى إلى تسويق مشروع "منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط" من خلال مصر، فركزت الإدارة الأمريكية جهودها على ضرورة حل مشكلة الوجود البريطانى فى قاعدة قناة السويس فمارست ضغطا شديدا على بريطانيا أدى إلى إبرام إتفاقيتى السودان عام 1953 والجلاء عام 1954، وشمر الأمريكان عن ساعد الجد وراحوا يجثون عن حل لمشكلة فلسطين يرضى مصر وا إسرائيل.

غير أن المناخ لم يكن مواتيا للتوصل إلى حل للمسألة الفلسطينية، فالضباط الأحرار لهم تجربة مريرة فى حرب فلسطين ليس من السهل نسيانها أو تجاوزها، كما أن عبد الناصر – على وجه الخصوص – لا يرى أن مصر تستطيع الوصول إلى اتفاق يحقق المصالح العربية، وهى على تلك الحال من الضعف، وأن أى أتفاق يبرم فى هذا السياق سيخدم مصالح "العدو بالدرجة الأولى" وظل هذا موقفا ثابتا لعبد الناصر طوال حياته.

الخلاف على حجم إسرائيل

ومن الغريب أن هذا الموقف المتشدد من جانب عبد الناصر تجاه الصلح مع إسرائيل، لم يتضمن تحديد إطار سياسة بعيدة المدى بالنسبة للقضية الفلسطينية، فرغم استبعاد الصلح، ظل موقف عبد الناصر من قضية الوجود الإسرائيلى مبهما، ففى كل التصريحات الصادرة عنه كانت الدعوة لتطبيق قرارات الأمم المتحدة وحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين وفق هذه القرارات هى المطلب الأساسى الذى يطرحه عبد الناصر، مما يعنى ضمنا القبول بوجود إسرائيل من حيث المبدأ فى إطار مشروع التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة عام 1947، أى أن المشكلة اختزلت إلى مسألة خلاف على حجم إسرائيل الذى تجاوز

حدود قرار التقسيم، ولم يكن تحرير فلسطين من الوجود الإسرائيلى يوما ما هدفا من أهداف جمال عبد الناصر على غير ما كان يشاع بل أن عبد الناصر أنكر (فى اجتماع مع تيتو ونهرو عام 1957) أن مصر تسعى لإلقاء إسرائيل فى البحر، وأكد للزعيمين أن ذلك لم يرد يوما على لسان أى من المسئولين المصريين وليس من الأهداف السياسية المصرية، ويضيف هيكل أنه تم بحث هذا الأمر بحثا جديا فتبين أن هناك تصريحا صدر عام 1949 من خلال مقابلة تمت بين عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية وأحد الصحفيين الأجانب عندما تناول الصحفى معه مسألة قيام إسرائيل فأبدى الأمين العام عدم استعداد العرب للاعتراف بالكيان الصهيونى،

وعندما سأله الصحفى عما يفعله اليهود فى هذه الحالة رد عبد الرحمن عزام:" يعودوا إلى البحر كما جاءوا منه"، واهتمام عبد الناصر بتحرى الحقيقة وراء دعوى إلقاء إسرائيل فى البحر يبدو وكأنه محاولة للحصول على "شهادة إبرام ذمة" من تلك "التهمة" ويدل دلالة واضحة على أن شعار تحرير فلسطين كان للاستهلاك المحلى، ولا يعنى تصفية إسرائيل أو منازعتها الحق فى الوجود، ولعل ذلك يفسر إلحاح إسرائيل وأصدقائها على التوصل إلى اتفاق مع مصر يحول الاعتراف الضمنى بالوجود إلى اعتراف قانونى صريح.

ولم يكن عبد الناصر على استعداد لتقديم هذا الاعتراف إلا إذا جاء فى إطار تسوية تضمن للشعب الفلسطينى حقوقه التى نصت عليها قرارات الأمم المتحدة (عودة اللاجئين أو تعويضهم)، وفى نطاق حدود قرار التقسيم، وهو – بالطبع – ما لم يكن مقبولا من جانب إسرائيل التى أرادت اعترافا "بالأمر الواقع" دون التزام بحل قضية اللاجئين أو الالتزام بحدود التقسيم.

ومن هنا كان الضغط المتواصل على مصر بالقوة فى 1956، 1967 لإرغامها على الرضوخ للمطالب الإسرائيلية، مع الاستمرار فى محاولة فتح قنوات الاتصال للدخول فى حوار مباشر إذا فشل فى تحقيق الأهداف الإستراتيجية لإسرائيل بتوقيع أتفاق مع مصر فإن تسريب أخباره إلى أجهزة الإعلام كفيل بسحب البساط من تحت أقدام عبد الناصر الذى ارتكزت زعامته فى العالم العربى على موقفه المتشدد من مسألة الاعتراف بإسرائيل.

ولعل أهم مشروعات التسوية التى طرحت لحل النزاع العربى الإسرائيلى هو المشروع الأمريكى للتسوية الشاملة الذى حمل الاسم الكودى" ألفا ALPHA" وأستغرق نحو عامين (1953 – 1955) ومن الغريب أن هيكل لم يعطه اهتماما كافيا، وظن أن المشروع كان ثمرة جهد مجموعة عمل من المخابرات المركزية الأمريكية والخارجية الأمريكية ولكنه فى الحقيقة كان مشروعا وضعته الخارجية الأمريكية وشاركت فى صياغته دول حلف الأطلنطى وخاصة بريطانيا وفرنسا، لأن المشروع كان حجر الزاوية لفتح صفحة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط فى إطار مشروع الدفاع عن الشرق الأوسط تستوعب فيه كل بلاد

المنطقة بمايفا مصر وا إسرائيل، ولذلك كان الحرص الأمريكى على إشراك حلف الأطلنطى فى التسوية مع تحميل بريطانيا وفرنسا قسطا كبيرا من الأعباء المالية المترتبة على التسوية والمتعلقة بمشروعات المياه وتعويضات اللاجئين والمساعدات الاقتصادية لمصر وغيرها من جيران إسرائيل. وهو المشروع الذى لعب فيه روبرت أندرسون دور الوسيط فى المباحثات غير المباشرة بين مصر وا إسرائيل، والتى أصر فيها عبد الناصر على انسحاب إسرائيل من النقب وا إعطائه للعرب لتحقيق اتصال أرضى بين مصر والمشرق العربى، وهو ما لم يكن باستطاعة إسرائيل قبوله فى إطار تسوية سلمية تفقدها نحو ثلثى الأراضى التى وضعت يدها عليها عام 1948 وتحولها إلى مجرد (كانتون) صهيونى على المنطقة الساحلية، وحاول الأمريكان عبثا إقناع عبد الناصر بالبحث عن بديل لمطلب الاتصال الأرضى بين مصر والمشرق العربى، وأدى فشل المشروع إلى إسراع إسرائيل بالبحث عن سبيل فرض التسوية بالقوة من خلال العدوان الثلاثى عام 1956.

على كل، كانت هذه هى القناة الوحيدة التى نشطت لفترة محدودة بين مصر وا إسرائيل من خلال الوساطة الأمريكية، أما ما عدا ذلك من القنوات التى ذكرها هيكل فى كتابة الجديد، فكانت مجرد محاولات لفتح قنوات اتصال لقيت آذانا صماء من جانب عبد الناصر، أو محاولات من جانب إسرائيل والصهيونية العالمية لتوصيل رسائل لمصر، وساهم فى محاولات فتح قنوات الاتصال زعماء كبار مثل تيتو ونهرو وديجول الذين حاولوا إقناع عبد الناصر بضرورة فتح حوار مع إسرائيل، وعرضوا استعدادهم لذلك، وجاء ذلك بمبادرة فردية فى حالة ديجول (1965 و 1967)، أو بدافع محاولات الصهيونية العالمية تشجيع مصر على التحاور مع إسرائيل فى حالة تيتو ونهرو اللذان تحركا بتشجيع من ناحوم جولدمان زعيم المؤتمر اليهودى العالمى الذى كرر محاولاته الدموية فى أعوام 1957 و 1961 و 1965 دون جدوى، وتمثلت محاولات توصيل الرسائل الإسرائيلية إلى القيادة المصرية فى جهود كيرمت روزفلت رجل المخابرات المركزية الأمريكية، وريتشارد كروسمان عضو البرلمان البريطانى، ولكن الحكومة الرومانية والرئيس شاوشسكو على وجه الخصوص كانوا أنشط من لعب دورا فى نقل الرسائل الرسمية أو شبه الرسمية الإسرائيلية إلى مصر اعتبارا من عام 1970حتى تم الاتصال المباشر بين مصر وا إسرائيل بعد زيارة السادات الشهيرة للقدس.

والكتاب فى جملته يقدم ملفا للصراع العربى – الإسرائيلى أقل إثارة من الكتب الأخرى التى نشرها هيكل وخاصة ثلاثية "حرب الثلاثين عاما" فالميزة التى انفردت بها كتابات هيكل السابقة، وهى حصيلة المعلومات المهمة الكبيرة، وخاصة تلك المستقاة من أوراق عبد الناصر، لا تتوفر فى هذا الكتاب ربما لأن الكثير من المعلومات المتعلقة بالاتصالات الخفية بين العرب وا إسرائيل لم تعد سرا، ربما لأن قسطا كبيرا من التطورات التى عرضها هيكل فى هذا الكتاب وقع بين 1979 و 1995 عندما كان هيكل بعيدا عن دوائر صنع القرار، مكتفيا بالمراقبة عن بعد، وتتبع ما ينشر حول قضية الشرق الأوسط وأن كانت

ميزة احتفاظه بدائرة علاقات وثيقة واسعة مع الكثير من اللاعبين الر ئيسيين على مسرح السياسة فى المنطقة وسعت مجال الرؤية أمامه، وجعلته مراقبا من نوع فريد.

يبقى بعد هذا أن الكتاب يقدم شهادة من كاتب سياسى متميز سجل فيها ما شاهده وما سمعه ولا شك أن موقفه وموقعه السياسى، ورؤيته الخاصة كانت وراء توزيع الإضاءة فى الكتاب وتحديد مساحات الظلال، وإن كان ذلك يجعل لكتابات هيكل مذاقا خاصا متميزا.